حذار من علماء السوء
قطاع الطريق إلى الآخرة

يا رجال الدين يا ملح البلد!

من يُصلح الملح إذا الملح فسد؟!

opeikandi.com

حذار من علماء السوء قُطّاع الطريق إلى الآخرة

بعد أن طوّفنا بك في بساتين الربانيين وجمعنا لك من أزهاير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من الصالحين حذار أن تخالف نهجهم وأن تسير على غير منوالهم فيكون العلم وبالاً عليك، فالعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل.

● قال رسول اللّه ﷺ: «**غيرُ الدجّال أخْوَفُ على أمتي من الدجال الأئمة المُضلُّون**»(١).

● وقال ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قُرَّاؤها**»(٢).

● وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقَى في النار، فتنَدلِق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» عن أبي ذر، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠٤١).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو، وأحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني في «الكبير» وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٥٠)، و«صحيح الجامع» رقم (١٢١٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

تندلق: تخرج من مكانها بسرعة.

الأقتاب: جمع قِتْب: وهي الأمعاء. الرحى: الطاحون.

● وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مررتُ ليلة أُسريَ بي بأقوام تُقْرَض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباءَ أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»(١).

● وعن زيد بن أرقم ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ يقول: «اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها» رواه مسلم.

● وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم عمل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه»(٢).

● وقال ﷺ: «مثل الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج، يُضيء للناس ويحرق نفسه»(٣).

● وعن أبي برزة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة، تُضيء على الناس، وتحرق نفسها»(٤).

❑ قال الثوري ـ رحمه اللَّه ـ: «إنما يُتعلَّم العلمُ ليُتقى به اللَّه، وإنما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا ابن وابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب». وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في رواية لهما «ويقرءون كتاب اللَّه ولا يعملون به».

(٢) صحيح: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن جندب بن عبداللَّه الأزدي، قال المنذري: وإسناده حسن إن شاء اللَّه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٤) صحيح: رواه البزار قال المنذري: والطبراني في «الكبير» كما قال السيوطي والهيثمي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

فُضِّل العلم على غيره لأنه يُتقى به اللَّه». فإن لم يثمر العلم عملاً به فما هو بعلم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

❑ قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملاً حسِّيًّا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهّموه ولا عملوا بمقتضاه بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء قوم لهم فهوم لم يستعملوها»[١].

❑ وقال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: كُلِّفوا العمل بها، ضُرب مثلاً لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هي جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يُسفر عن المعنى إذا قُرئ. وفي هذا تنبيه من اللَّه تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلّم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذمِّ ما لحق هؤلاء ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها. شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتبًا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة»[٢].

❑ هذا خلاّد بن يزيد الأرقط ـ الذي قال عنه أبو زيد عمر بن شبة ـ: «كان من الجبال الرواسي نبلاً يأتي سفيان بن عيينة للعلم فانظر ماذا قال له سفيان:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٦٤).

(٢) «تفسير القرطبي» ص(٦٥٧٣).

قال خلاّد: أتيت سفيان بن عيينة فقال: «إنما يأتي بك الجهل لا ابتغاء العلم، لو اقتصر جيرانك على علمك كفاهم، ثم كوّم كومة من بطحاء ثم شقّها بإصبعه ثم قال: هذا العلم أخذت نصفه، ثم جئت تبتغي النصف الباقي فلو قيل: أرأيت ما أخذت هل استعملته؟ فإذا صدقت قلت: لا، فيُقال لك: ما حاجتك إلى ما تزيد به نفسك وقْرًا على وقر ! استعمل ما أخذت أولاً»[1] .

❑ وقال وهيب بن الورد: مثل عالم السوء كمثل حجر دُفع في ساقية فلا هو يشرب من الماء، ولا هو يُخلّي عن الماء فيحيا به الشجر، ولو أن علماء السوء نصحوا للّه في عباده فقالوا: يا عباد اللّه اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم، وصالح سلفكم، فاعملوا به، ولا تنظروا إلى أعمالنا فإنا قوم مفتونون، كانوا قد نصحوا للّه في عباده، ولكنهم يريدون أن يدْعُوا عباد اللّه إلى أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها»[2] .

❑ وقال سفيان بن عيينة: «العلم إن لم ينفعك ضرّك».

❑ قال الخطيب: «يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به، ضرّه بكونه حجّة عليه»[3] .

❑ يا معشر العلماء اسمعوا: العالم ما لم ينفعه اللّه بعلمه فهو من أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة:

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: **«إن أوّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: ما**

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ص(٨٤).

(٢) المصدر السابق ص(٦٧).

(٣) المصدر السابق ص(٥٦).

عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يُقال: فلان جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت: ولكنك تعلّمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسّع اللَّه عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به، فعرّفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: هو جواد، فقد قيل: ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار»[١] .

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشرّ الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصدّيقون والمخلصون، وشرّ الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم»[٢] .

❑ رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تُخالف سريرتهم علانيتهم، ويُخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى اللَّه عز وجل[٣] .

---

(١) رواه مسلم والنسائي والترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه».

(٢) «الداء والدواء» ص(٣١).

(٣) «جامع بيان العلم» ص(٢٤٥).

وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد: أدركت الناس وما يُعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل»[١].

❑ وقال الحسن ـ رحمه اللَّه ـ: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعو أقوالهم، فإن اللَّه لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يُصدِّقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسنًا فرويدًا بصاحبه، فإن وافق قوله فعله فنعم ونَعْمَة عين»[٢].

❑ قال الفضيل ـ رحمه اللَّه ـ: إنما يُراد من العلم العمل، والعلم دليل العمل».

*** من لم يعمل بعلمه فهو جاهل:**

من لم يثمر علمه عمله به فهو جاهل.. وهذا النوع من الجهل سماه ابن القيم «جهل العمل».

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفًا وشرعًا وحقيقة.

* قال موسى: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧] لما قال له قومه: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ أي: من المستهزئين.

* وقال يوسف الصديق: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣٣] أي: من مرتكبي ما حرّمت عليهم.

* وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول اللَّه ﷺ أن كل ما عُصِي اللَّه به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصى اللَّه فهو جاهل. وسمّي عدم

(١، ٢) «جامع بيان العلم» لابن عبدالبر ص(٢٤٥).

مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به فنزّل منزلة الجهل. وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله. فالفرار المذكور ـ أي منزلة الفرار من «منازل السائرين» ـ هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة في العلم. ومن «جهل العمل» إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً»[١].

❑ والخشية هي العلم، والقيام بحق العلم من العبادة هي العلم.

* قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] فسمى التهجد علماً.

❑ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية اللَّه علماً، و«كفى بالاغترار به جهلاً».

❑ وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: إنما العالم مَن يخشى اللَّه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي أن كل من خشي اللَّه فهو عالم، ويقتضي أيضاً أن العالم من يخشى اللَّه.

«فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات، وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبيّن ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم»[٢].

❑ قال مجاهد: من عمل ذنباً ـ من شيخ أو شاب ـ فهو بجهالة. وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. وقال أيضاً: هو إعطاء الجهل العمد. وقال مجاهد أيضاً: من عمل سوءاً خطأً، أو إثماً

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية ص(٥٩).

عمداً، فهو جاهل حتى ينزع منه.

❑ يا من حملت العلم بين جنبيْك أعلم أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتّبعونه قولاً أو عملاً، أوْ لا قولاً ولا عملاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من اللَّه، ويقولون على اللَّه ما لا يعلمون. ولهذا كان السلف، كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: «من فسد من علمائنا: ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا ففيه شبه من النصارى»[1].

* قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «شبّه سبحانه من آتاه كتابه، وعلّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط اللَّه على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخسّ الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدّى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشمُّ دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضّه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا. والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلاّ هَرَّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية ص(٥).

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنيّة، وحال رزيّة نبحه، وحمل عليه كأنه يتصوّر مشاركته له، ومنازعته في قوته. وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على اللَّه والدار الآخرة ـ مع وفور علمه ـ بالكلب في حال لهثه سرّ بديع، وهو أن هذا حاله ما ذكره اللَّه من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن اللَّه والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال انزعاجه وتركه. واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

❑ قال ابن جريج[1]: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات اللَّه، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر على الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإذا كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثًا: يلهث قائمًا، وقاعدًا، وماشيًا، وواقفًا. وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده تُوجب له دوام اللهث.

---

(١) انظر «الطبري» (٩/ ١٢٩).

فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

❑ قال مجاهد: ذلك مثل الذي أُوتي الكتاب ولم يعمل به.

❑ وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طُرِد لهث.

❑ وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعِي أو لم يدع، وُعظِ أم لم يوعظ. كالكلب يلهث طردًا وتركًا.

❑ وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

❑ وقال أبو محمد بن قتيبة[1]: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علة إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش». فضربه اللَّه لمن كذّب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال. كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

* ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

❑ وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني:

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة واللَّه هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه. ثم قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد

(١) انظر «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص(٣٦٩).

يُسلخ عن اللحم.

ولم يقل فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبّب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه.

❑ ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، وكان محفوظًا محروسًا بآيات اللَّه محميّ الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئًا إلا على غرّة وخَطْفة. فلما انسلخ من آيات اللَّه ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

❑ ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإنّ هذا كان من العلماء، وإنما هي اتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاه اللَّه، فإنّ هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه اللَّه بعلمه، ولم ينفعه به. نعوذ باللَّه من علمٍ لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإنْ لم يرفعه اللَّه فهو موضوع، لا يرفع أحدٌ به رأسًا. فإن الرب الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه. والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

❑ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو شئنا لرفعناه بعلمه.

❑ وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر. والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه. وهذا المعنى حق. والأول هو مراد الآية. وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان

أن ذلك هو المراد منها.

* وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.

والمخلد من الرجال هو الذي يبطئ في مشيته.

❑ وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود: وهو الدوام والبقاء. يُقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به.

* وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.

❑ وقال أبو رَوْق[1]: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه فإن قيل: الاستدراك بـ «لكن» يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته، والاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ، أو لم نرفعه، فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات: من إيثار اللَّه ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[2].

❑ قال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم

(١) أبو روق، هو عطية بن الحارث، صدوق.

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٢١٦).

بالتأويل عام في كلِّ من أُوتي القرآن فلم يعمل به. وقيل: هو في كل منافق. والأول: أصح.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، أي: إنْ تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث. وكذلك من قرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه. وقال غيره: هذ شر تمثيل؛ لأنه مثّله في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا بكلب لاهث أبدًا، حُمل عليه أو لم يُحمل عليه؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللَّهَثان.

وقيل: من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كلّ عوض خسيس. ضربه اللَّه مثلاً للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلّت الآية لمن تدبّرها على ألا يغترّ أحد بعلمه ولا بعمله؛ إذ لا يدري بما يُختم له. ودلّت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره. ودلّت على منع التقليد لعالم إلا بحجّة يبيّنها؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها، فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألا يُقبل منه إلا بحجة»[1].

□ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: هذا مَثَل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

تأمل ما تضمّنته هذه الآية من ذمّه وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضلّ بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها.

---

(١) «تفسير القرطبي» ص(٢٧٥٩).

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوي بعد الرشد، والغيّ: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخصّ بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذُكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخفّ لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسّة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاء اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض. وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبه بالكلب الذي هو أخسّ الحيوانات همّة، وأسقطها نفسًا وأبخلها، وأشدها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا.

وعاشرها: أنه شبّه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا.. هذا إن تُرِك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعِظ وزُجِر فهو كذلك

فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الريّ وحال العطش فضربه اللَّه مثلاً لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته في حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخسّ ما يكون وأشنعه»[1].

*** عالم السوء:**

وقفنا طويلاً أمام مثل عالم السوء الذي آتاه اللَّه آياته فانسلخ منها، وهو «مثل رهيب عجيب، وما تنفك ظلاله القاتمات تملأ النفس رهبة ووجلاً، وتدخل على القلب بالهمِّ والحزن أن يصير إنسان إلى هذه الحال ـ أيُّ إنسان ـ ولكن الذي صار إليه رجل من أعلم أهل زمانه وكذلك يصير من هو على شاكلته انسلاخًا من آيات اللَّه، وإخلادًا إلى الأرض واتباعًا للهوى، ثُمَّ هو في الدنيا يقعد من الناس مَزْجَر الكلب، وفي الآخرة عذاب عظيم، وما ظلمهم اللَّه ولكن أنفسهم كانوا يظلمون؛ لأنهم كانوا في الدنيا يصرفون الناس عن اللَّه بسلوكهم وأعمالهم»[2].

*** تلبيس إبليس:**

قال ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن أقوامًا علت هممهم فحصّلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك، فأتاهم إبليس بخفيّ التلبيس فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم؛ فمنهم من

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٠٠ ـ ١٠٢).

(٢) «ذم الجهل» لمحمد بن سعيد بن رسلان ـ ص(١٥٧ ـ ١٥٨) ـ دار العلوم الإسلامية.

يستفزّه لطول عنائه في الطلب، فحسّن له اللذات، وقال له: إلى متى هذا التعب فأرح جوارحك من كلف التكاليف وأفسح لنفسك في مشتهاها؛ فإن وقعت في زلة فالعلم يدفع عنك العقوبة، وأورد عليه فضل العلماء.

فإنْ خُذِل هذا العبد وقَبِل هذا التلبيس يهلك، وإن وُفِّق فينبغي له أن يقول: جوابك من ثلاثة أوجه:

* **أحدها**: إنه إنما فُضِّل العلماء بالعمل ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصود به ويصير مثلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه.

* **والثاني**: أن يعارضه بما ورد في ذمّ من لم يعمل بالعلم.

* **والثالث**: أن يذكر له عتاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم، كإبليس وبلعام. ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمل قوله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾.

وقد لبّس إبليس على أقوام من المحكّمين في العلم والعمل من جهة أخرى، فحسّن لهم الكبر بالعلم والحسد للنظير والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم. وتارة يقوّي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ.

وعلاج هذا لمن وفّق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء، وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شرّ هذه المكتسبات بل يُضاعف عذابها لتضاعف الحجة به.

ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقرّت نفسه فلم يتكبّر، ومن عرف اللَّه لم يرآءِ، ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد.

وقد يدخل إبليس على هؤلاء بشبهة ظريفة؛ فيقول طلبكم للرفعة ليس بتكبّر لأنكم نوّاب الشرع فإنكم تطلبون إعزاز الدين ودحض أهل البدع، وإطلاقكم الكلام في الحسّاد غضب للشرع؛ إذ الحسّاد قد ذمّوا من قام به، وما تظنّونه رياء فليس برياء؛ لأن من تخاشع منكم وتباكى اقتدى به الناس كما يقتدون بالطبيب إذا احتمى أكثر من اقتدائهم بقوله إذا وصف.

وكشف هذا التلبيس: أنه لو تكبّر متكبّر على غيرهم من جنسهم وصعد في المجلس فوقه، أو قال حاسد عنه شيئًا لم يغضب هذا العالم لذلك كغضبه لنفسه، وإن كان المذكور من نوّاب الشرع، فعُلم أنه إنما لم يغضب لنفسه بل للعلم.

وأما الرياء فلا عذر فيه لأحد ولا يصلح أن يُجعل طريقًا لدعاية الناس. وبعد هذا فالأعمال بالنيات، والناقد بصير. وكم من ساكت عن غيبة المسلمين، وإذا اغتيبوا عنده فرح قلبه، وهو آثم ذلك من ثلاثة وجوه:

* أحدها: الفرح فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب.

* والثاني: لسروره بثلب المسلمين.

* والثالث: أنه لا ينكر.

وقد لبّس إبليس على الكاملين في العلوم فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين، ويكون مقصودهم الباطن؛ انتشار الذكر، وعلوّ الصيت والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنِّف.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير تردد إليه، أو قُرئَت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم.

❑ قال بعض السلف: ما من علم علمته إلا أحببت أن يستفيده الناس

من غير أن يُنسب إليّ ـ قلت: هو الشافعي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويُلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاّب العلم؛ وإنما مراده كثرة الأصحاب، واستطارة الذكر، ومن ذلك العُجب بكلامهم وعلمهم.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه، وما هذه صفة المخلص في التعليم؛ لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى للَّه سبحانه وتعالى؛ فإذا شُفي بعض المرض على يد طبيب منهم فرح الآخر.

● وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلاّ ودّ أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه.

وقد يتخلصّ العلماء الكاملون من تلبيسات إبليس الظاهرة، فيأتيهم بخفيّ من تلبيسه؛ بأن يقول له: ما لقيت مثلك، ما أعرفك بمداخلي ومخارجي؛ فإن سكن إلى هذا هلك بالعُجْب، وإن سلم من المسألة له سلم.

❑ وقد قال السري السقطي: لو أن رجلاً دخل بستانًا فيه من جميع ما خلق اللَّه عز وجل من الأشجار عليها من جميع ما خلق اللَّه عز وجل من الأطيار، فخاطبه كل طائر بلغته؛ وقال: السلام عليك يا وليّ اللَّه فسكنت نفسه إلى ذلك، كان في أيديها أسيرًا، واللَّه الهادي لا إله إلا هو»[1].

*** علماء السوء:**

❑ قال ابن الجوزي يصف بعض علماء السوء في عصره: «قدم علينا

(١) «تلبيس إبليس» ص(١٢٩).

بعض الفقهاء من بلاد الأعاجم وكان قاضيًا ببلده فرأيتُ على دابته الذهب ومعه أتوار[١] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات.

فقلت: أي شيء أفاد هذا العلمُ؟ بل واللَّه لقد كثرت عليه الحجج، وأكبر الأسباب قلّة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول اللَّه ﷺ؛ إنهم يجهلون الجملة، ويتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة وليس يعنيهم سماع حديث ولا نظر في سير السلف، ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزيِّي بزيهم، وربما خطر لهم أن هذا قريب، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلاصادّ، نعم، ربّما خطر لهم أن يقولوا: هذا يحتمل ويُغفر في جانب تشاغلنا بالعلم، ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم، ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم من يستصحب المردان، ويشتري المماليك، وما كان يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة. ورأيت من قدْ بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالة.

فاللَّه اللَّه يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة، إيّاك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالبة؛ فإنك إن ترخّصت بالدخول في بعضها جرّك الأمر إلى الباقي، وكم تقدر على الخروج لموضوع إلف الهوى فاقبل نصحي، واقنع بالكسرة، وابعد عن أرباب الدنيا؛ فإذا ضجّ الهوى فدَعْه ولا تُجبه. فالصبر الصبر على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى.. فما يتّم دينٌ إلا بذلك. ومتى وقع الترخّص حمل إلى غيره، كالشاطئ إلى اللجة، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، ووجه أصبحُ من وجه؛ وإنما هي أيام يسيرة»[٢].

---

(١) أتوار: جمع تورٍ وهو إزاء يُشرب فيه وقد يُتوضّأ منه.

(٢) «صيد الخاطر» ص(٣٦٣).

* **علماء السوء قطاع الطريق إلى الجنة.. دعاة على أبواب جهنم:**

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلّما قالت أقوالهم للناس: هلمّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في هذه الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطّاع الطرق»[1].

* **علماء السوء ممقوتون عند اللَّه:**

* ويكفي هؤلاء قول اللَّه عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣].

والمقت الذي يكبر عند اللَّه هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر.. وهذا غاية التفظيع لأمر، وبخاصة في ضمير المؤمن، الذي يُنادى بإيمانه، والذي يناديه ربه الذي آمن به.

* **علماء السوء:**

❑ إنه ليس أشنع من خيانة المستأمَن، وليس أبشع من تفريط المستحفَظ، وليس أخس من تدليس المستشهَد.

❑ إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك.

❑ يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع.

---

(١) «الفوائد» ص(٨١).

وَبَّخْتَ غيرك بالعمى فأفدته بصـرًا وأنت مُحَسِّنٌ لعماكَ
وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتُضيء للأعشى وأنت كذاكَ

❑ أو كما قال القائل:

وكنا نستطِبُّ إذا مرضنا فصار هلاكُنا بيد الطبيب

❑ قال الجُنيد: متى أردت أن تشرف بالعلم وتنسب إليه، وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلم ماله عليك، احتجب عنك نوره، وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، ولك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته».

❑ يقول ابن الجوزي: «وجدت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعات التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل؛ أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلاّ أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصِحْتُ بها: فما الذي أفادك العلم. أين الخوف؟ أين القلقُ؟ أين الحذر؟؟

أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبّدهم واجتهادهم؟ أما كان الرسول ﷺ سيد الكلّ، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجيّ النشيج كثير البكاء؟

أما كان في خدّ عمر رضي الله عنه خطّان من آثار الدموع؟

أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة؟

أما كان عليّ رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلّ لحيته بالدموع؟

ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري؟

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد لم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضرّ واصْفرّ؟

أما قالت بنت الربيع بن خيثم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات؟

أما كان أبو مسلم الخولاني يُعلِّق سوطًا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون وقُطِع بي؟

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم؟ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد؟

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكُسالى والزَّمْني.

وَخُذْ لك منك على مُهْلَةٍ ... وُمْقبل عيْشِك لَمْ يُدْبِرِ

وَخَفْ هَجْمةً لا تُقيلُ العثا ... رَ وتَطْوِي الورود على المصْدَرِ

ومثِّلْ لنفسِكَ أي الرَّعيـ ... ـلِ يضُمُّكَ في حَلْبَة المحشَرِ

* * *

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها

*** شيخ معمم في اللاذقية أيام الوحدة مع مصر يقول عن «المسابح المختلطة» أنها الجيل القوي الأمين الذي سيحرر فلسطين!! وكلمة حق من الشيخ محمد المجذوب:**

❑ يقول الأستاذ محمد المجذوب في كتابه «خواطر ومشاعر»:

«دأبت منذ ثلث قرن على خدمة الكلمة المسلمة، أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو تذكيرًا بحق، أو دعوة إلى خير.. حتى صار ذلك جزءًا لا يتجزأ من كياني، ولو كلفني ألوان البلاء من السجون والاعتداء، وحتى المحاربة في الرزق.. ومن هنا أصبح مثل هذا التعرض للمسئوليات، بالنسبة إليّ، خلقًا لا سبيل إلى تجاهله أو عصيانه، كائنة ما كانت عواقبه؛ لأن الموضوع ليس خاضعًا لمعايير الربح والخسار، بمقدار ما هو حافز نفسي يفرض سلطانه دون أن يكون لي بإزائه أي خيار.

ثم إني إلى ذلك من أعلم الناس بحساسية الأوضاع، التي لا يمكن أن تتسع لأي نقد، بعد أن استمر سلطان الحزبية الثورية، التي لا تتورع عن سحق أي بادرة من هذا النوع، لقد ظل دعاة هذه الحزبية عاجزين عن إطباق قبضتهم على عنق البلاد، على الرغم من كل المحاولات الزائفة التي هولوا بها على السذج، والحملات الإعلامية الرهيبة، التي شنوها على مخالفيهم من قادة الأكثريات الشعبية.. أما الآن، وبعد قيام الوحدة السياسية بين القطرين، التي وضعت في أيديهم أزمة البلد ـ ولو إلى حين ـ فقد حققوا كل ما فاتهم، حتى ليعلنون حربهم على النظام الإلهي نفسه كما حدث يوم وقف أحد وزرائهم يفتتح مشروع سد الرسين بقوله: بعد اليوم لن نحتاج إلى السماء..، ومع أن السماء قد ردت على ذلك التحدي الصبياني بحبس

الغيث عن الشام كلها، فلم تأذن لها بقطرة من الماء حتى تلك الساعة.. فإن قبضتهم لم تزل يشتد ضغطها على عنق البلاد، حتى بات من غير المتوقع أن يجرؤ إنسان على الإشارة إليها ولو همسًا، إلا أن يكون كارهًا لحياته، أو مفارقًا لعقله.

ثم.. من أين لي أن أنسى تلك التظاهرة الحكومية الكبرى التي افتُتح بها مسبح (الشاطئ الأزرق) في اللاذقية، أكبر تلك المذابح، إذ شارك فيها وزراء الإقليم، حتى الوزير الذي كان محسوبًا على الإسلاميين، ومعروفًا بالسلوك المحافظ.. وقد حشد لها فريق من السباحين والسباحات من القطرين.. وألقى فيهم معممٌ غير مجهول تلك الكلمة الرائعة، التي كان منها قوله: (في هذه المدارس ـ يريد المسابح ـ سيتخرج الجيل القوي الأمين الذي سيحرر فلسطين)!!

وطبيعي أن تعتبر تلك الحفلة يومئذٍ تعبير الدولة عن نظرتها الرسمية إلى مثل هذه المشاريع.. ولا سيما بعد إذاعة هاتيك الخطبة النفيسه، التي صفق لها كبار الشخصيات الرسمية والمدعوة، وحملتها وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمنظور إلى كل مكان.. وكان من حق هذا أن يقفل بي كل رغبة للكلام في غير هذا الاتجاه.. لو كان لمثل فضولي أن ينتفع بمنطق الواقع فيلجأ إلى أضعف الإيمان.

وتذكرت أنني عضو منتخب في تشكيلة (الاتحاد القومي).. الذي كنا نتوقع أن يكون له مهمة أخرى غير التدريب على الاستقبال والتصفيق.. ولعل لهذه الصفة أثرها الأكبر في اندفاعتي ـ غير المعقولة ـ التي حركت لساني بكل ذلك التنديد المزعج.. إذ قلت لنفسي: ما جدوى انتخابنا وتنظيماتنا، إذا لم يكن لأحدنا الحق في أن يقول للمخطئ: إنك مخطئ!!.

ولم تذهب توقعاتي سدى.. فما إن انتهيت إلى مكتبي حتى طالعتني

تلك المفكرة غير السارة.. متوَّجة بشعار (المباحث) وفيها دعوة (المدعو محمد المجذوب) إلى مواجهة المسئولين وبأسرع وقت ممكن!.

وكان ذلك عصر الخميس. فخشيت أن أحجز هناك إلى يوم السبت، فقررت تجاهل الدعوة، وتأخرت المواجهة إلى صباح ذلك اليوم.

وطال انتظاري في غرفة الكاتب.. وكان ذلك مألوفًا بالنسبة إلى كل مدعو للمباحث العامة؛ لأنه أشد إثارة لأوهامه، وأعمق تأثيراً في أعصابه، ولا معنى للمباحث إذا هي تخلت عن هذا الطابع!.

وعلى مقربة من وقت الظهر جاء الآذن ليبلغني موعد المقابلة، فانطلقت خلفه إلى مكتب الرئيس.. فإذا عنده الضابط الذي تتناقل الألسن أخبار شدته على الذين يقذف بهم القدر إلى يديه..

واستكمالاً للفائدة المنشودة عرفني الرئيس ـ بعد رد التحية ـ شخصية مساعده قائلاً: إنه فلان.. وضغط على اسمه بصورة تسترعي الانتباه، وتظاهرت بالهدوء، أجبت بمثل المداعبة: يسرني أن ألقاكما معًا..

وافتتح الرئيس الحوار بهذا السؤال: لعل الرحلة كانت موفقة؟!..

ـ أتريد زيارتي لأهلي في طرطوس وبانياس؟..

ـ طبعًا.. فهل لك أن تحدثنا بما ألقيت على الناس هناك؟..

ـ عسى أن يكون المخبر أكثر تذكرًا مني لما قلت.. لأني لم أتحدث إلى الناس بشيء معدّ..

ـ لقد تكلمت عن المسابح.. وحذرت الناس شرها..

ـ المسابح المختلطة طبعًا!..

ـ هي لا غيرها..

ـ يظهر أن المخبر لم يكذبك. إلا إنه نسي أني لم أسمها مسابح بل مذابح..

ولم يطق كتمان دهشته، فنظر إليَّ فاغر الفم ثم قال: هكذا.. وفي دائرة حكومية تصرح بهذا!! ولم أجدني قادرًا على التمويه فأجبت: تلك كلمة حق لا قيمة لها إن لم تقل.. واسمح لي أن أوجه مثلها إليكما أيضًا..

وصاح الرئيس وصاح معه المساعد الذي لم يحرك لسانه بغير هذه الكلمة «إلينا»؟!.

ـ نعم إليكما.. إنها نصيحة لا يسقط الواجب إلا بأدائها.. وهي أن تتجنبا تلك المذابح فلا تقرباها ولا سيما مع أهلكما..

وركز الرئيس مقعده باتجاهي وهو يقول: يظهر أنك لا تفكر بعواقب كلامك.. عليك أن تفهم أن هذه المسابح ليست إلا إحدى الوسائل المخططة لإخراج المرأة من قوقعتها.. تلك هي سياسة سيادته، ولا محيد عنها، أرجو أن تفهم هذا جيدًا.

وابتسمت بقدر ما يساعد الموقف، ثم أجبت: إن سيادته مسلم، وكثيرًا ما يعلن تقديره للإسلام.. فلا يعقل أن يرضى بما يناقض دين اللَّه..

وأراد الرجل أن يسد باب الجدل، فإذا هو يتحول إلى التلويح بالسلطة، وفي لهجة مشحونة بالوعيد يسأل: من كلفك إرسال هذا الكلام؟!.. وهل أنت موظف في قسم الإرشاد؟!..

ولم أجد مندوحة عن الاستسلام إلى حوافز الضمير فقلت: بلى.. إنني موظف وفي القسم نفسه..

قال: ومن الذي وظفك؟.. ومتى..

قلت: اسمح لي أن أسألك: باسم مَن أنت توجه إلي هذا التحقيق؟

وفي شموخ متعال أجاب: إنني أتكلم باسم سيادة الرئيس..

قلت: إذن فاعلم أن رئيسي أكبر من رئيسك.. إنه اللَّه الذي ألزمني

هذه المهمة منذ آمنت به وبرسوله!..

وسادت القاعة لحظة صمت.. لم يلبث أن قطعه بقوله: إذن فاستعدَّ لمغادرة البلاد بأهلك وسنعد لكم الجوازات اللازمة..

وسألت بدوري: ولم هذا؟

قال: لأنك معارض لسياسة سيادة الرئيس.. ولا مقام في جمهوريتنا المتحدة لمن يرفض هذه السياسة!..

وكان علي أن أفكر جادًا وبسرعة في ذلك العرض الذي لم أكن بكاره له، فقد طالما تطلعت إلى الضرب في أرض اللَّه تطلع السجين إلى ما وراء الأسوار.. غير أني تخوفت أن يكون وراء العرض خطة للاستدراج.. فأجمعت على التظاهر برفضه، وبالصراحة نفسها قلت للرجل: إنني امرؤ ذو رسالة أعمل لها منذ ثلث قرن، ولا يزال أمامي الكثير لإتمامها، ومن أجل ذلك لا أريد مغادرة وطني في الوقت الحاضر.. غير أني أنصح لكم أن تدفعوا بمثل هذه الجوازات إلى جماعة (الهاشناق) فهم أحق بها من مثلي..

وكانت أخبار هذه الفئة من الأرمن لا تبرح جديدة على ألسنة الناس، بعد الذي أذاعته وسائل الإعلام عن مصادرة أجهزتها التجسسية، حتى من بعض المعابد التابعة لها!.. وكأنه وجد في إشارتي إليها ما استدعى وقف الحديث.. فأعلن انتهاء المقابلة دون أية نتيجة..

وعدت إلى البيت وفي نفسي أشتات التصورات، وما هي سوى أيام حتى تسلمت الأمر الصادر من السلطة المحلية بتسريحي من عملي في التدريس..

وفي المساء نفسه جاء لزيارتي محام صديق، جعل يعزيني ويذكرني بما لا ينبغي أن أغفله من الثقة برحمة اللَّه، وتكلم بعض أبنائي يَعِدون بأن يؤمنوا لي مثل راتبي الذي فقدته وفي اطمئنان غريب قلت لولدي: إنني

لشديد الأمل ألا يحوجني اللّه إلى معونتكم، وقلت لذلك الصديق: لقد أتيت ما أتيت نشدانا لمرضاة اللّه، وسترى يا صديقي أنه لن يغفلني..

❑ وكنت مدعوًّا لإلقاء بعض شعري في الحفلة التي يقيمها المجلس الثقافي بدمشق، فسافرت في اليوم التالي، وألقيت قصيدتي (ناقور القضاء) عن فلسطين واللاجئين.. ثم التقيت بوزير التعليم الإقليمي سيد يوسف، وقصصت عليه مشكلتي كاملة، فوجدت لديه إصغاء كريمًا، وكان على أهبة السفر إلى القاهرة فوعدني أخيرًا، وأنظرني إلى موعد رجوعه لدمشق، ولدى عودتي إلى الفندق وجدت خلاصة مكالمة هاتفية واردة من أهلي، تفيد أن فلانًا، وهو مدير ثانوية خاصة في حلب، قد أبرق يعرض عليَّ عملاً يقارب ضعف مرتبي المقطوع.. فقلت في نفسي: إنها البادرة الأولى للفرج الرباني.

وعدت إلى اللاذقية ومن ثم إلى حلب، ولكني لم أكد أتم الاتفاق حتى فوجئ العالم بنبأ الانقلاب الذي أطاح بالكيان السياسي كله.. وإذا الوحدة التي خلقتها الظروف غير الطبيعية تتبخر خلال ساعات معدودة، ويخلفها نظام جديد.. وحكومة جديدة تولى وزير التعليم فيها صديق لي قديم..!.

ولم أتردد في استجابة الحافز الأول، فشخصت إلى دمشق واتصلت بالوزير الصديق، الذي أحاط بواقع مشكلتي، فكتب على بطاقة خاصة رسالة حاسمة إلى ذلك المسئول، الذي كان قد وجد في تسريحي فرصته الذهبية للانتقام وفيها يقول: إني آمر بإعادة فلان إلى عمله دون أي تأخير.

وعلى الرغم من محاولات المأمور تأخير التنفيذ، لم يجد مفرًا من إلغاء قراره الظالم، فاستردت مكاني المغصوب.. ثم رحت أتابع شريط الأحداث، فأرى بعيني إلى مصير الأربعة الذين تواطئوا علي وقد أصبح كل

منهم عبرة لكل ذي عين..!

❑ وجاءني الصديق المحامي مرة ثانية ليقول: لا أدري بأي النصرين أهنئك.. بسقوط الذين بغوا عليك أو بعودة حقك إليك..؟

قلت: ولكن.. أنَّى للنصرين أن يخفا من أساي لانفصام القطرين..! وأطرق صديقي يفكر بما أثارته عبارتي في نفسه ثم أردف: لست واللَّه بأقل أسى لهذه النهاية.. ولكن.. لا تنسى يا صديقي أن الوحدة التي فقدناها ولدت ميتة منذ يومها الأول، لأنها لم تحمل روح صلاح الدين، ولهذا لم تظفر بالقرار المكين، ثم لم تعرف سبيلها إلى الشاطئ الأمين..!»[1].

* خبر عجيب عجيب!!!!

❑ يقول الدكتور محمد المجذوب: «سألت أحد طلابي في الجامعة إذا كان قد أتمّ زواجه الذي سبق أن أخبرني به.

فقال: لقد انفرط عقده قبل الدخول، ثم قص عليّ هذا الخبر العجيب الغريب، وخلاصته أن قاضي بلده قد حكم إلغاء عقده، إذ ثبت له أنه ينتمي إلى جماعة إسلامية معروفة، في حين أن زوجته تنتمي إلى إحدى الفرق الثورية.. والقاضي لا يرى تزويج مثلها لمثله؛ لأنه ليس لها بكفء!!»[2].

❑ وفي جامع ابن أدهم بجبلة من الساحل السوري وقف مفت معروف يخطب المسلمين، وكانت الغيوم متلبدة بين المملكة السعودية ورئيس الوحدة الموؤدة، فجعل خطبته صورة من ترهات صوت العرب ومفترياتها على السعودية، ثم ختم خطبته برجاء للراغبين إلى الحج إلى بيت اللَّه أن يستنزلوا سخط اللَّه على رجال المملكة وهم متمسكون بستار الكعبة!.

---

(١) «خواطر ومشاعر» لمحمد المجذوب (ص١٣٢ ـ ١٣٦) ـ دار الاعتصام.

(٢) «مشكلات الجيل في ضوء الإسلام» (ص١١٧ ـ ١١٨).

وشاء اللَّه أن يجتمع بعض حجّاج جبلة ذلك العام حول الكعبة المشرفة فيقول أحدهم: لا تنسوا وصية الشيخ بالدعاء على القوم! وكادوا يفعلون لولا أن قيض اللَّه لهم من أقنعهم بفساد تلك الوصية!!»[١] .

*** إن عالم السوء سماؤه مظلمة ليس فيها كواكب!!**

نظرته قصيرة وذوقه أعمى!

يتجول بلا هدف

الملّة أصبحت بأقواله متفرقة إلى أفراد!

وماذا يبقى من الأمة إن تفرق أفرادها أيدي سبا!

*** فتوى للشيخ زكي بدر وفتوى للشيخ الأكبر على مذهب واعتقاد الخوارج:**

❑ يقول زكي بدر: «أما الإخوان المسلمون؛ فهم ليسوا بمسلمين لكنهم أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب ظلمًا وعدوانًا على الدين الإسلامي[٢] ، ثم الأدهى من ذلك أن تابعه شيخ الأزهر!! حيث نقلت الصحف المصرية أنه وقعت مصادمات بين المسلمين والنصارى في إحدى قرى الصعيد وبدون معرفة دوافع هذه المصادمات وبدون معرفة من المخطئ ومن المصيب، أصدر شيخ الأزهر هذه الفتوى «مرتكبو أحداث العنف ليسوا بمسلمين!!».

❑ قال شيخ الأزهر: إن هؤلاء ممن يسمون بالمتطرفين لا يجب أن نسميهم هكذا فعن أي شيء تطرفوا وهم لا ينسبون إلى الإسلام أصلاً . وكيف أنسبهم إلى الإسلام وهو العدل الإلهي الذي أوضح أنه من يقدم على

(١) المصدر السابق (ص١٢١).

(٢) «الوطن العربي» (تاريخ ٣/ ٢/ ١٩٨٩م).

جريمة القتل وعلى الإطلام والإفساد قد تخلى وقت ارتكابه الجريمة عن إسلامه لأن رسول اللّه ﷺ يقول: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن**» ولهذا أنه من الإنصاف أن نبحث لهؤلاء القتله عن صفة أو اسم آخر يناسب ما ارتكبوا من جرائم». جريدة الأخبار ١٣/ ٥/ ١٩٩٢م.

*** حكم التكفير أشد من حكم الحرابه:**

والغرابة أن شيخ الأزهر أصدر هذا الحكم الجائر دون معرفة أسبابه ودوافعه، ودون معرفة الظالم من المظلوم وبعد إصدار الفتوى والحكم بالتكفير تقول ـ الأخبار ـ وحول إمكانية حد الحرابة الإسلامي على مرتكبي أعمال العنف في قرية «صنبو».

❑ قال الإمام الأكبر: «يجب ألا نستبق الحوادث وهذا طبعي ومبدئي في الحكم على الأشياء قبل أن يتم توصيف الجريمة كما أنني لا أفترض تطبيق عقاب ما دامت الأمور ليست واضحة»، وقال: «لا تنسوا أنه حتى آلان لم تتضح أسباب ما حدث ونحن نقرأ كل يوم أسبابًا جديدة لما حدث واتهامات جديدة أيضًا» الأخبار ١٣/ ٥/ ١٩٩٢م ـ ونسي شيخ الأزهر أن إصدار حكم التكفير على المسلم بدون تثبت من وقوع الفعل أولاً وبدون دليل قطعي يفيد أن الفعل كفر مخرج من الملة وبدون إقامة الحجة على الفاعل أبشع وأبشع لما رواه البخاري عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ما رمى رجل رجلاً بالكفر أو الفسق إلا ارتدت عليه ما لم يكن صاحبه كذلك**».

*** الرد على شيخ الأزهر وجماعة التكفير:**

حقيقة.. أمر مؤسف أن تستدرج الحكومة شيخ الأزهر حتى ينخرط في مذهب الخوارج قديمًا وجماعة الهجرة والتكفير حديثًا فيفتي بأن ارتكاب

المعصية كفر يزيل وصف الإسلام عن مرتكبها!! مما يترتب عليه تكفير غالبية المسلمين قديمًا وحديثًا إذ لا يسلم من ارتكاب الكبائر إلا الأنبياء وصفوة أتباعهم، ولكن لكثرة المناقشة مع جماعة الهجرة والتكفير أصبحت الأدلة سهلة ويسيرة ولا يكلفنا الأمر إلا فتح كتاب من كتب العقائد ثم نبحث عن الفصل الذي يرد على الفرق الضالة، ثم نبحث عن باب الرد على «الخوارج» ثم ننتقي ما يكفينا من الأدلة الشرعية، ولكن قبل هذا لا بد أن ننظر في الحجة والبرهان الشرعي الذي استند إليه شيخ الأزهر وهو بعينه الذي كان يستدل به «جماعة التكفير» في تكفيرهم لعصاة المجتمعات الإسلامية من الزناة وشاربي الخمور والسارقين والقتلة وغيرهم.

*** دليل شيخ الأزهر:**

هو لا يزني الزاني حيث يزني وهو مؤمن - ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن» وقبل الرد أيضًا نريد أن نوجه سؤالاً لشيخ الأزهر: وهو كالآتي: «على افتراض أن الشباب الإسلامي هو السبب في أحداث «صنبو» وأنه هو الظالم وأنه يقع تحت وعيد الحديث المذكور فهل ينطبق الكفر والخروج من الإسلام عليهم فقط، أم يشمل الأصناف المذكورين مع القاتلين وهم الزناة وشاربي الخمور والسارقين؟ فإن قال الشيخ نعم يشملهم لأن دليل تكفير القتلة شمل الباقي.

◘ نقول: إذن صارت غالبية مجتمعات المسلمين كلها كافرة!! لأن شرب الخمور والزنى والسرقة تقع باستمرار من هذه المجتمعات؛ فإن قال: إن الفتوى تقصد، وقت الفعل فقط.

◘ نقول: لا.. بل الفتوى كانت بعد وقوع الأحداث وقضت بارتفاع وصف الإسلام عنهم بل ووصف التطرف وبأنهم لم يكونوا مسلمين أصلاً،

والآن يكفينا الرد على مرتكبي جريمة الاقتتال لأنه يشمل باقي المذكورين في الحديث، فنقول وباللَّه التوفيق.

*** الاقتتال لا يخرج من الإسلام:**

أجمع صحابة رسول اللَّه والتابعون والأئمة الأربعة وغيرهم من جماهير السلف والخلف على أن الاقتتال لا يخرج المسلمين من إسلامهم، حتى ولو كانت جميع الأطراف مسلمة فضلاً عن كونها غير مسلمة، وقد قال تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله..**﴾ الآية.

❑ قال ابن كثير: «فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، خلاف ما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة»[1] ا. هـ[2].

*** من زيارة شيخ الأزهر لأندية الروتاري الماسونية:**

في كتاب «من شيخ أزهري إلى شيخ الأزهر.. الأزهر إلى أين؟!».

❑ كتب الشيخ الدكتور عبدالودود شلبي إلى شيخ الأزهر:

«أتوقف معك عند قضيتين أثارتا الجدل، وأشعلتا في النفوس ثورة الألم والغضب.

أولى هاتين القضيتين زيارتك إلى أندية الروتاري فمن البديهيات أن ننأى بأنفسنا عن مواطن الشبهات.. والزعم بأن العبرة بما يقال من (كلام) لا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير. (١/ ٢١١).

(٢) «الرأي والرأي الآخر في أسباب الخلاف بين الحكام وشباب الصحوة الإسلامية» (ص٥٤ ـ ٥٨) لعثمان القطعاني ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية.

بالمكان غفلة وإفراط في حسن النية.

أذكر: أن صديقين ذهبا إلى إدارة الأزهر لتهنئتك بالمشيخة ومن العجيب والغريب معًا أنهما قدما إليك كتابًا يكشف عن مؤامرات الروتاري والماسونية، وفي يقيني أنك لم تقرأ هذا الكتاب ووصفت من اعترضوا على هذه الزيارة بأنهم جهلة وسفهاء!

لقد أوقعك (الروتاريون) في الفخ.. وحصلوا منك على ما لم يحصلوا عليه من قبل! بل جعلوا من زيارتك (إعلان براءة) و(فتوى شرعية) تبيح لهم التصرف بلا حذر والتغلغل في أعماق الشعب المصري بلا خوف! وهذا هو الهدف الحقيقي من دعوتهم لك.. وهذا هو (الفخ) الذي وقعتم فيه من غير قصد»[1].

*** شيخ الأزهر يقول عند موت أحد البطاركة: «لقد مات حبيب اللّه وحبيب الشعب»!!!**

❑ وقال الدكتور عبدالودود شلبي:

«عندما توفي أحد البطاركة قال شيخ الأزهر ـ في ذلك الوقت ـ: لقد مات حبيب اللّه وحبيب الشعب»!!!

لو قال هذه الكلمة «مطران» أو «قمص» أو حتى «شماس» لتقبل الناس ذلك بالترحيب والرضا..

أما أن يقولها شيخ الأزهر فداهية من دواهي الدهر.. ومصيبة وقعت على رءوس المسلمين في مصر وفي خارج مصر.. ذلك لأن (المجاملة) بمثل هذا الكلام تجاوزت حدود الدين والعقل.. وألقت بالإسلام والمسلمين في

(١) من شيخ أزهري إلى شيخ الأزهر: «الأزهر إلى أين» (ص٣٥ ـ ٣٦) ـ دار الاعتصام للدكتور عبدالودود شلبي.

بحار من الريبة والشك!

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى امتلأت مصر كلها بإشاعة تقول: إن شيخ الأزهر قد ارتد وتنصر!! ووصلت الإشاعة إلى الشيخ نفسه فبادر إلى كتابة مقال نشرته صحيفة الأهرام تحت عنوان: «إن الدين عند اللَّه الإسلام» واللَّه أكبر..!!»[1].

* **الدكتوراه الفخرية من الجامعة الإنجيلية «مركز الدراسات التنصيرية» لشيخ الأزهر لماذا؟:**

«ولأن الشيء بالشيء يذكر.. هل فكرت يا فضيلة الإمام وقبل سفرك إلى الولايات المتحدة، وذهابك إلى الجامعة الإنجيلية التي منحتك الدكتوراه الفخرية.

هل عرفت شيئًا عن هذه الجامعة؟

بل لماذا أُنشئت هذه الجامعة؟

هذه الجامعة هي مركز الدراسات التنصيرية.. أي الجامعة التي تعد وتؤهل المنصرين الذين يقومون بتنصير المسلمين في آسيا وفي أفريقيا!!

و«القس» الذي سافر معك، وحصل على نفس الشهادة.. هذا القس هو رئيس الكنيسة الإنجيلية التي تقوم بتنصير المسلمين هنا في مصر المحروسة!!

إن أسماء من ارتدوا على أيدي كهنة هذه الكنيسة معروف عند الجهات المختصة! وهذه الأسماء عندي إن شئت الاطلاع عليها.. بل إن أحد كهنة هذه الكنيسة حاول تنصير طالب أزهري ـ يعمل الآن إمامًا وخطيبًا ـ في

(١) المصدر السابق (ص ٤٠ ـ ٤١).

إحدى محافظات الدلتا!

ألم تفكر يا فضيلة الإمام.. لماذا وجهت إليك هذه الدعوة؟ ولماذا منحت هذه الشهادة؟

إن هذه الشهادة لا تمنح أصلاً إلا لمن قدموا خدمات جليلة للكنيسة! ـ ومعاذ اللّه ـ أن تخطر ببالنا هذه الخاطرة!.. ولكن حسن الظن يورط صاحبه أحيانًا في مزالق خطيرة!!

اطلب الملف الخاص بالكنيسة الإنجيلية أو كنيسة قصر الدوبارة من أمانة الدعوة.. هذا إذا كان الملف لا يزال موجودًا في مكانه بالأمانة العامة؟!!»[1].

* وا إسلاماه:

❑ قال اللورد البريطاني المسلم «هيدلي»: لو كان للإسلام دعاة على مستوى الإسلام.. لدان معظم الناس في الغرب والشرق بالإسلام!!![2].

لقد وقف الأستاذ T.B. ARVENG (تي. بي. أرفنج) الأستاذ في جامعة (تنسى) (TENECY) الأمريكية، وقف يخاطب المسلمين في مدينة (جلاسجو) ببريطانيا منذ سنوات فماذا قال البروفسور (أيرفنج)؟

لقد قال: إنكم ـ أيها المسلمون ـ لن تستطيعوا ـ أن تنافسوا الدول الكبرى علميًا، أو اقتصاديًّا، أو عسكريًّا.. في الوقت الحاضر على الأقل، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام!!

أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون.. والذي يتعطش إليه كل الناس في مختلف جنبات الأرض.. تعلموا الإسلام وطبقوه.. واحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم الدنيا.. ويدين لكم كل ذي سلطان..

(١) المصدر السابق (ص٤١ ـ ٤٢).

(٢) المصدر السابق (ص١١٣).

اعطوني أربعين شابًا ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا.. ويطبقونه على حياتهم تطبيقًا عميقًا ويحسنون عرضه على الناس بأسلوب العصر.. وأنا أفتح بهم الأمريكتين[١] !!!

* مَن يُصلح الملح إذا الملح فسد؟!

❑ يقول الدكتور عبدالودود شلبي في كتابه «الأزهر إلى أين؟»[٢] :

«وأسأل الشيخ الدكتور:

في عهد الرئيس الراحل (جمال عبدالناصر) صدر ميثاق العمل الوطني.. وهذا الميثاق كما هو معروف، وكما قال الرئيس: يعتمد (الاشتراكية العلمية) منهجًا للتحول الاجتماعي، والاشتراكية العلمية ـ كما هو معروف ـ هي الماركسية!!

وقد فرض تدريس هذا الميثاق على طلبة الأزهر، وسارع كبار شيوخه ـ في هذا الوقت ـ إلى الترحيب بهذا الميثاق كأنه وحي أنزل![٣] .

* الأزهر يعطي الدكتوراه الفخرية لأحمد سوكارنو المرتد عن الإسلام والصانع لدين «الفانشاسيلا»:

وأعود لأسأل الشيخ الدكتور مرة ثانية:

هل تذكر رئيس أندونيسيا السابق (أحمد سوكارنو)؟ بالتأكيد تعرفه.

(سوكارنو) هذا صنع (دينًا جديدًا) للشعب الأندونيسي المسلم أطلق

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٥)، وكتاب «قضية التخلف العلمي في العالم الإسلامي المعاصر» للدكتور زغلول النجار (ص١٣٧، ١٣٨) ـ كتاب الأمة.

(٢) (ص١٥٨).

(٣) انظر في هذا الموضوع: «الاشتراكية العربية» للدكتور محمد البهي ـ مطبعة الأزهر و«القيم الروحية في الميثاق» دكتور محمد بيصار.

عليه اسم (الفانشاسيلا) وكان دينًا يجمع بين الإسلام، والمسيحية، والشيوعية، والهندوكية!!!

وحين ثار الشعب الأندونيسي ضد هذه الهرطقة وهذا الكفر ملئت السجون بعشرات الألوف، وقُتل الكثيرون بأفواه البنادق.. ووضع الزعيم المسلم الدكتور محمد ناصر وإخوانه في قبو تحت الأرض!!

فماذا كان موقف الأزهر من سوكارنو؟

لقد منحه الأزهر درجة الدكتوراه الفخرية، وقال الأزهر في حيثيات منحه هذه الشهادة:

إن الأزهر باستقبال فخامتكم اليوم إنما يستقبل قائدًا عظيمًا من قواد حركات التحرر في البلاد الإسلامية، يستقبل زعيمًا تمرس في الكفاح من أجل حرية بلاده واستعذاب العذاب من أجل سيادة أمته، واستطاب السجن والنفى والمشاق في سبيل تكوين شعبه واستقلاله وحياته الكريمة!!

يستقبل الأزهر فخامتكم اليوم مسجلاً تاريخكم المجيد منذ نشأتكم، وفي شبابكم حتى وقتكم الحاضر.. وهو تاريخ مليء بالأحداث الكبرى، أحداث المجد والعظمة التي ترتبط بعظمة أمة إسلامية كبرى، وبفك أسرها من قيود الاستعمار الأجنبي، وبتمكين أبنائها من الحياة الإنسانية الكريمة، وهي حياة الإيمان، والحرية، والعلم والمعرفة، والعمل الصالح المثمر المعمر.

وقد أراد الأزهر أن يعبر عن تقديره لكفاحكم المجيد، فقرر مجلسه الأعلى في جلسته المنعقدة في السادس والعشرين من شوال سنة ١٣٧٩هـ الموافق الواحد والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٠م، أن يمنح سيادتكم شهادة العالمية الفخرية من درجة أستاذ في الفلسفة، ليرى فيكم ابنًا من أبنائه، وعنصرًا من عناصره العاملة المجاهدة!!.

وقد كان لمنح الأزهر (سوكارنو) هذه الشهادة وقع الصاعقة على

مسلمي أندونيسيا.. بل على جميع المسلمين في الشرق الأوسط والشرق الأقصى!!»[١].

*** وزير الأوقاف وشئون الأزهر يأمر بصلاة الغائب على «باتريس لومومبا» رئيس الكونغو وهو شيوعي قح:**

وأسأل مرة ثالثة الشيخ الدكتور:

في عهد وزير الأوقاف وشئون الأزهر الأسبق[٢] أقيمت صلاة الغائب على (باتريس لومومبا) رئيس جمهورية الكنغو الأسبق، وبأمر من الوزير الأزهري!

هل يعلم الشيخ الدكتور من كان لومومبا؟

(لومومبا) هذا كان شيوعيًا قحًا، ولأنه كان كذلك فقد خلد الاتحاد السوفيتي الهالك! ذكراه باطلاق اسمه على جامعة في موسكو!!

فكيف باللَّه أقيمت الصلاة على ملحد.. بل كيف سكت الجميع في الأزهر، وفي الأوقاف ولم ينطق منهم أحد؟!!»[٣].

*** نافق أحمد حسن الزيات جمال عبدالناصر وادّعى أن الوحدة الناصرية مع سوريا أفضل من الوحدة المحمدية!!!**

❑ وأسأل الشيخ الدكتور وللمرة الرابعة:

هل سمعت بما كتبه.. رئيس تحرير مجلة الأزهر.. لقد كتب يقول تحت عنوان (أمة التوحيد تتوحد)[٤]:

---

(١) «الأزهر إلى أين» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) كان هذا في الستينات.

(٣) «الأزهر إلى أين» (ص١٦٠).

(٤) في محرم ١٣٨٣هـ.

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة؛ لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة؛ لأنها قامت على السلطان، والسلطان يعتريه الوهن فيزول.

أما الوحدة الناصرية فباقية نامية؛ لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق.. والحرية في الرأي.. والديمقراطية في الحكم.. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة»!!

هل يصدق أحد صدور مثل هذا الكلام من مسلم؟

وهل يتصور عاقل أو حتى مجنون أن يكتب هذا في مجلة الأزهر؟

والأعجب من هذا كله.. أن الأزهر لم ينطق بكلمة أو يتحرك!!!

لقد ضج العالم الإسلامي من هول الصدمة، وانبرى العلماء والمفكرون يسفهون هذا المقال وصاحبه في جميع أنحاء الدنيا..

يقول علامة المسلمين في الهند «أبو الحسن الندوي» في تعليقه على مقال رئيس تحرير مجلة الأزهر:

اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (الغرب) في لاهور مرة، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غاية من الذكاء وسلاطة اللسان، وتجاذبوا مع الأستاذ «اختر الشيراني» أطراف الحديث، وصاروا يتناقشون معه في موضوعات شتى.

وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر، وقد فقد رشده وملكته نشوة الخمر، وأخذته رعشة في الجسم، وكان يتكلم كلامًا متقطعًا غير متزن، وكان معروفًا بالإعجاب الشديد بنفسه والتيه بها، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء.

ولست أذكر اليوم جيدًا الموضوع الذي كان يدور البحث فيه، ولكن أذكر أنه قال: قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين، أولهم: أبو الفضل[١].

والثاني: أسد اللَّه خان غالب[٢]، والثالث: أبو الكلام أزاد[٣]، أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحد منهم بالمساواة أو المجاراة، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير (فيض أحمد فيض) فأعرض عن الجواب، وسألوه عن (شبير حسن جوش) الشاعر المعروف فقال: ليس بشاعر إنما هو ناظم.

وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين، استخفاف أو إعراض، أو تبسم، أو تنكيت، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدمي لجأوا إلى موضوع آخر، لعله يثيره أو يحرك منه ساكنًا، فقالوا: يا سيدي.. ماذا يقول عن النبي الفلاني؟.. وكانت عيناه محمرتين، وأخذت الخمر فيه كل مأخذ، وكان لا يملك لسانه ولكنه أفاق وقال: ما هذا الهراء؟

لا تتحدثوا إلا عن الأدب والإنشاء والشعر والشعراء، فعطف عنان الكلام إلى أفلاطون، وقال: ما رأيك عن مكالماته؟ وسألوه عن أرسطو وسقراط، وكان نشيطًا للكلام فقال: أمة قد خلت.

حدثونا عن شخصياتنا وحاضرنا.. إن أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتتلمذوا علينا.. ما لنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم؟

❑ وانتهز شاب من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرحه

---

(١) من وزراء الإمبراطور أكبر وصاحب «أكبر نامة» المأثرة العلمية في التاريخ وتخطيط البلاد.

(٢) شاعر أردو، يعتبر من أئمة الشعر الأردي، وصاحب مدرسة خاصة، كان في القرن الثالث عشر الهجري.

(٣) الأديب المعروف، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق، ووزير المعارف في الهند سابقًا.

فقال: وما رأيك عن سيدنا محمد؟

وكأنما نزلت صاعقة وهبت عاصفة، فلم يكد الشاب يتم جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلاً:

يا قليل الأدب..! أنت توجه هذا السؤال الوقح إلى رجل مذنب معترف بشقائه.. ماذا تريد أن تسمع من فاسق؟ وكان جسمه يرتعد.. وانفجر باكيًا، وأجهش بالبكاء، وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنف وغضب:

كيف سولت لك نفسك يا خبيث أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدس؟ كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب، يا قليل الحياء، لقد كان لكلامك مجال واسع.. فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدس؟ تب إلى اللَّه من هذا السؤال الوقح.. إنني أعرف خبث باطنك جيدًا، وعرف الشر في وجهه وكأنه يريد أن يفتك بالشاب ويسطو به!!

أما الشاب فقد سقط في يديه، وغاب رشده، ولم يكن يقدّر أنه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة، وأنه يوقظ في الشاعر هذا الليث الثائر، ويثير فيه هذه الشرارة الكامنة.. شرارة الإيمان والحنان، وشرارة الحمية والغيرة، فكان لا يعرفه إلا شاعر الهوى والشباب، وشاعر الغزل والغرام، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير، وأن يهدئ فيه هذه الثائرة، ولكنه لم ينجح، ولم تهدأ ثائرة (اختر) فأمر بإخراجه من المجلس، ثم قام بنفسه وبات طول الليل باكيًا يقول:

لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحد من الوقاحة والجراءة.. إنهم يريدون أن يتزعوا منا آخر ما نعتز به ونعيش عليه من حب وولاء، وإخلاص ووفاء، إنني رجل مذنب، لا شك أعترف بذنبي، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقة الإسلام، ونخرج من حظيرة الإيمان، لا واللَّه، لا نرضى بذلك!!!

ولكن ـ وا أسفاه وا ويلاه ـ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي وهذه الغيرة الإيمانية الثائرة المضطرمة التي يمثلها شاعر لم يكن قط من أبناء العرب، ولم يتكلم مرة بلغة العرب، نشأ بعيدًا عن البيئة الدينية والعلمية والأزهر الشريف، عاش في مجالس الشرب ونوادي اللهو، وأوساط الشعر والأدب، وعرف بالاستهتار وخلع العذار.

ما أبعد المسافة بينه وبين أديب كبير.. رضع بلبان اللغة العربية وآدابها الإسلامية، واشتهر بمقالاته في السيرة النبوية والموضوعات الإسلامية، يرأس تحرير مجلة هي لسان حال الأزهر الشريف، مثابة العلم والعلماء ومعقل الدين الحنيف.

كيف يقرن الاسم الذي هو من أكرم الأسماء وأعزها عند المسلمين باسم حاكم مصر، ويقارن بينهما، ثم تبلغ به الوقاحة إلى أن يعلن رجحان «ناصر» في هذا الميزان، وأن الوحدة التي يتزعمها وحدة باقية نامية، أما الوحدة التي دعا إليها محمد ﷺ، فمعرضة للضعف والتحول.. يا ليته لم تلده أمه.. ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك!!!»[1].

*** أرضعوا الأمة الرياء والنفاق:**

إذا كان هذا حال من تصدر باسم الدين فكيف يكون حال بقية الناس..

❑ يقول محافظ أسيوط لعبدالناصر: «يا رب إنا نحبك ولكننا نحب جمالاً فما حيلتنا» فيُرقَّى في اليوم التالي محافظًا للقاهرة.

❑ ويقول مدير جامعة أسيوط لعبدالناصر في نفس الزيارة «إن كان اللَّه

(١) لقد ضاعت الوحدة.. وضاعت بعدها القومية والاشتراكية، واحتلت أرض مصر، ثم مات «ناصر» نفسه.

شق البحر لموسى فقد أعطاك ما هو أكبر.. السد العالي» فرقى في اليوم التالي وزيراً للثقافة.

❑ وقال ناظر المدرسة التي تعلّم فيها السادات مادحًا له: «إن في خلق السموات والسادات (هكذا وأقسم باللّه) لآيات لأولي الألباب.

*** وا إسلاماه وا إسلاماه...**

يا رجـــال الدين يا ملح البـلدْ من يُصلح الملح إذا الملح فسد؟؟

*** يا علماء السوء:**

لِمَ تعرضون عن النور وهو الذي أضاء السموات والأرض.. أضاء القلوبَ وأضاء العقول.. كأنما تصرون أن تعيشوا حياتكم ظلامًا.. ظلامًا بغير نور

*** ﴿قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.**

*** يا علماء السوء عودوا إلى الحق:**

❑ فعلى حدائه الحبيب يسير الركب ثابت الخطى محدد الغايات..

❑ وعلى شعاعه المضيء يتحدد الطريق.. فمحجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

مع الحق..

نجد حلاوته في القلوب، ونعرف مكانه في حنايا الصدور.. أغلى من العمر، وأحلى من الحياة!

مع الحق..

والحق يعلو على البشر، ويعلو به البشر، ولكن لا يعلو عليه بشر..!

مع الحق..

به حياة الروح، وفي سبيل ذهاب الروح.. ليبقى أشمّ من الرواسي، وأخلد ما علي الأرض..

وللحق العاقبة، طال عمر الباطل أو قصر

* قال تعالى: ﴿**قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾.

* وقال تعالى: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾»[1].

*** وأخيـــراً:**

كم تعظ ولا تتّعظ؟ حتى متى؟ وإلى متى؟ تزجرُ ولا تزدجر؟ تصف الطريق للمدلجين، وتبقى مقيمًا مع المتحيرين الحائرين.

*** يا عالم السوء:**

فالذي بين جنبيك من العلم يذكّرك إن حضر قلبك. وإن غاب قلبك فمائة ألف واعظ لا يوصلون إليك موعظة.

غزلتُ لهم غزلاً دقيقًا فلم أجد لغزلي نسّاجًـــا فكسّـرت مغزلي

* * *

(١) «عندما يحكم الطغاة» لعلي جريشة (ص٣١) دار الاعتصام.

صبراً جميلاً

إلى السائرينَ إلى اللَّهِ على أَسِنَّةِ الحِرَابِ وجمرِ النيران أُهدي هذه الخاطرة:

ولما رأتْ وجْهي وقد غاضَ[١] بِشرُه
تفيضُ دمـــوعُ الحزنِ من عينِـه بَحْـرا
ويَذْوِي[٢] به روضُ الأماني كأنَّما
رَوتْهُ شِغافُ[٣] القلبِ من قَيْظِها[٤] الجمـرا
وقد خَطَّ فيه الدَّمْـعُ أشباحَ لَوْعَةٍ
وأبدى مِنَ الأحـزانِ ما جنَّهُ[٥] الدَّهْرا
وغـارتْ مـآقي نـاظـريـهِ كهـائمٍ[٦]
غريبٍ عن الأوطانِ قدْ أنفدَ الصَّبرا
كأنَّ بحـارَ الحُزْنِ في هذه الدُّنـا
تَفَجَّرُ مِنْ حُزْنٍ لدى قَلْبِهِ قَرَّا[٧]
ولـمَّـا رأتْ قلبي تَـدَفَّـقَ حُزْنُـهُ
تَدَفَّقَتِ الأحـزانُ مِنْ قَلْبِها حَرَّي[٨]

(١) غاض: الماء غيضًا: نزل في الأرض وغاب فيها والمراد ذَبُل الوجه.
(٢) يذوي: ذوى العود: ذَبُل ويَبِس وضُعف. (٣) شغاف: سُويداء القلب وحبَّته.
(٤) قيظ: القيظ شدة الحر. (٥) جنَّه: أخفاه وستره.
(٦) هائم: هام: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه.
(٧) قرَّا: أقام وسكن واطمأن. (٨) حرَّى: عطشى (من الحزن).

هَلِ الحبُ إلا مهجةٌ تشتكي هنا
فتَذْوي بظهرِ الغيبِ أرواحُهـا طُرًّا[١]
وتبكي وما تدري لماذا وإنَّمـا
أجابَتْ بُكاءَ الحِبِّ إذ قلبُها أَدْرى
ولَمَّا رأتْ عَيْنَي قالتْ دموعُها:
عَفَا عَنْكَ ربُّ الناس أَسْلَكْتنا الوَعْرا
أما قلتُ: إنَّ الحَقَّ صعبٌ طريقُهُ
وإن بَناتِ الدربِ قَدْ أعيتِ الصَّبرا
نَبِيتُ على رُعْبٍ ونَغْفُو على نَوى[٢]
ونَصْحُو على قَيْدٍ وزِنْزانةٍ صُغرى
ونَحْيا على مَوْتٍ ونبقى على فنا[٣]
نَخَافُ حَفيفَ[٤] الرِّيحِ والنَّسْمَةَ السَّكرى
نُحِسُّ رَحيبَ الكونِ مِنْ هَوْلِ كيدِهِمْ
مَتَاهَةَ[٥] أشْبَاحٍ وزِنزانة كُبْرى
تَعَالَ نعيشُ العُمْرَ أَمْنًا وراحَةً
نَعُبُّ[٦] مِنَ الدُّنيا وزِينَتِها السِّحْرَا

(١) طُرًّا: جميعًا.
(٢) نوى: فراق وبعد.
(٣) فنا: فناء.
(٤) حفيف: صوت الريح في أوراق الشجر.
(٥) متاهة: الصحراء لا علامة فيها يُهتدي بها.
(٦) نَعُبُّ: عبّ الماء: شربه بلا تنفس ولا مص.

ونَحْيا كما الأَطْيَارُ نشدوا بأَيْكِهَا
تَصُوغُ لنا الأَلْحَانَ تَمْنحُنا العِطْرَا
يَغُطُّ[١] لَدَيْها القَلْبُ مِلءَ جُفُونِهِ
وينسى لَدَيْها الخوفَ والذُّلَّ والقَهْرَا
تعالَ نَعِيشُ الدِّينَ سِلْمًا كما الوَرى
على مَذْهَبِ الحُكَّامِ نَجْتَنِبُ الشَّرَّا
فتلكَ جَمـوعَ النَّاسِ تَحْيا حياتَها
وتَعْبُدُ رَبَّ النَّاسِ ما تعرِفُ الضُّرَّا
فهَبَّ نَسِيمُ البِشْرِ أَبْرَدَ مُهْجَتي
وفَجَّرَ منها بَسْمةً زانَتِ الثَّغْرَا
فقُلْتُ: أيا حَسْنَاءُ مَهْلاً فإنَّهـا
دُمُـوعُ مُحِبٍّ تَرْقُبُ الفَتْحَ والنَّـصْرَا
وحُرْقَـةُ أَشْواقٍ إلى رَبِّهـا تَهْفُو[٢]
فَمَا تَرْتَضِي الدُّنْيا كُنـوزًا ولا قصـرَا
وقَلْبُ مُحِبٍّ شَفَّهُ[٣] الوَجْدُ[٤] والجَوى[٥]
وهَلْ ثَمَّ صَبٌّ[٦] دُونَ مَحْبُوبِهِ يَبْرا

(١) يغط: غط في نومه غطيطًا: ردد النفس في خياشيمه بصوت مسموع «نام نومًا عميقًا».
(٢) تهفو: تحن وتشتاق.
(٣) شَفّه: ضمّره وجعله نحيلاً.
(٤) الوجد: شدة الشوق والحب.
(٥) الجوى: اشتد وجده من عشق أو حزن.
(٦) صب: الصب: حامل الصبابة: أي مرارة الشوق أو رقته «العاشق».

وكُلُّ بَدَاءِ الحُبِّ مَيْتٌ فهَلْ تُـــرى
بذَلْنا إلى الفِرْدَوْسِ أرواحَنا مَهْرا؟!!!
فذاكَ إلى الحسناءِ يهفُو فؤادُهُ
ويذرِفُ دمعَ القَلْبِ في حُبِّها ثَرَّا
وذاكَ إلى الجَنَّـــاتِ في الأرضِ قد هَفا
وذاكَ هَوى الألحانَ والخِزَّوالتِبْرا
وقلبٌ إلى الرَّحْمَنِ يسرى وَجِيبُهُ[١]
يَخِفُّ[٢] إليهِ الكونُ يَشْتاقُهُ المَسْرَى
فصبراً على اللأْوَاءِ[٣] يا خودُ[٤] إنَّنـــا
على دربِ خيرِ الخَلْقِ لِلجنَّةِ الغَرَّا[٥]
وإنْ طَـالَ عَهْـدُ الليلِ دَهْرًا فإنَّني
لأَسْتَعْذِبُ الظَّلْمَاءَ إذْ أَذْكُرُ الفَجْرَا
وأَذْكرُ وجْـهَ الحِبِّ في حُلْكَةِ الدُّجى
فَأَغْزِلُ ثَوْبَ النُّـورِ لِلَّيلَةِ الكُبْرى
فإنْ مَا رَأَيْتِ القَيْدَ أَدْمَى سَواعِدي
وأَلْهَبَ حَرُّ السَّوْطِ رِجْلَيَّ والظَّهْرا

(١) وجيبه: وجب القلب وجيبًا خفق واضطرب ورجف.
(٢) يخف: خف: أسرع في السير.
(٣) اللأواء: التعب والنصب.
(٤) خود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.
(٥) الغرا: الغراء: الكريمة الفعال الواضحة المحاسن.

فتلكَ خِضابُ غازَلَ الفجرَ حسنُها
وذلكَ نـورٌ يَقْدُمُ الزَّمَـنَ الحُـرَّا
فلا تَخْشَيِ الأغلالَ والسَّوْطَ والقَنـا
ولا تَخْشَى النيـرانَ والحَرَّ والقُرَّا
فتلكَ سبيلُ اللَّهِ في كُلِّ بُقْعَـةٍ
تُقَاسِي لظى الأهـوالِ تَسْتَعْذِبُ النمُرَّا
ومَنْ رَامَ وَجْـهَ اللَّهِ دَرْبًا وغَايَـةً
أَعَدَّ لَـهُ الأَكْفَـانَ واسْـتَـقْبَلَ القَبْـرَا
لنا الأمـنُ دونَ العالَمينَ وإنْ زَوى
لنا الخلقُ ذاكَ الجـوَّ والبحـرَ والبـرَّا
فما غَضْبَـةُ الأَمْلاكِ إن يَّرْضَ ربُّنـا
وإنْ صـانَ رَبُّ العَرْشِ مَنْ يَمْلِكُ الضُّرَّا
تَعَالَيْ بنا نَأْوِي إلى ظِـلِّ أَيْكَةٍ
هُنَالِكَ حَيْثُ الرَّوْضِ يَحْتَضِنُ النَّهْرَا
ونَبْنِي لَنَا كُوْخًا على هَـامِ رَبْـوَةٍ
كَسَتْهَا بَناتُ الرَّوْضِ أَزْهَارَها العِطْـرَا
نعيشُ لديـهِ العُمْـرَ صَفْـوًا وبَسْمَةً
ونحيـا لديهِ الزُّهْـدَ والرَّوْحَ والطُّهْرَا

(١) الخضاب: ما يخضب به من ضاء ونحوه.
(٢) القُرَّا: البرد.
(٣) زوى: زوى الشيء: طواه وجمعه.

ويحيَا لديهِ القلبُ يَقْتاتُ طَاعةً
ويَرْشُفُ[١] ذِكْرَ اللَّهِ يَحْيا بِهِ العُمْرا
ويَسْرِى إلى الرَّحْمنِ قَدْ خَفَّ رَحْلُهُ[٢]
فَيَأْتِي دِيَارَ الحِبِّ لَيْلاً وما أَسْرَى
وكَمْ قَدْ سَئِمْتُ الدَّرْبَ أَشْتَاقُ رَاحةً
ـ زَعَمْتُ ـ إذِ الأَجْسادُ لازَمَتِ الخَدْرا[٣]
ولكِنَّها الفِرْدَوْسُ يَبْدُو نَعِيمُها
فنَعْدُوا إلى الرَّحْمنِ نَجْتَازُهَا[٤] صَخْرَا
تعالَىْ إلى الرَّحْمن نَرْجُوا جِنَانَهُ
عَلَى مَذْهَبِ المُخْتارِ أَحْرى بِهِ أَحْرَى

***

والحمدُ للَّهِ أَوَّلاً وآخِيراً
صباح الجمعة ٥ شعبان سنة ١٤٢٣هـ
١١ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م

(١) يرشف: رشف الماء مصّه بشفتيه.
(٢) رحله: ما يوضع على ظهر البعير للركوب والمقصود: متاع الدنيا.
(٣) الخدرا: كل ما وارى من بيت ونحوه «ستر يُمد للمرأة في ناحية البيت».
(٤) نجتازها: جاز الموضع: سار فيه وسلكه وقطعه.

obeikandl.com